تمكين لغتنا العربية وتأثيرها في لغات البشر لمواجهة تحديات العولمة

د. ايمان سالم حمودي الخفاجي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الامين افضل من نطق بالضاد من الاولين والاخرين وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين وبعد٠٠

فلا ريب ان اللغة العربية ركن اساس من اركان وحدة امتنا العربية والاسلامية ، وعمود محوري من اعمدة قوتها ، انها دعامة بقاء وعنصر تفوق لهذه الامة ٠

ومن هنا فان كل لبنة تضاف الى لبنات هذه الامة تزيد في شموخها هي قوة دافعة لروح الامة وشعاع يضاف الى حزمة ضيائها فعندما اوحى الله عزوجل رسالة الى رسوله الكريم محمد انزلها قرانا عربيا والله تبارك وتعالى يقول لنبيه :﴿ فانما يسرنه بلسانك لنبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾ (١)٠ وما من لغة تطاول اللغة العربية في شرفها فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية وليست منزلتها الروحية وحدها التي تسمو على ما اودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان ، اما السعة فالامر واضح ومن يتتبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما هو معروف لغة تضاهي اللغة العربية ، ويضاف جمال الصوت الى ثروتها المدهشة في المترادفات وتزين الدقة ووجازة التعبير كلغة العرب ٠ لقد عاشت اللغة العربية منذ القديم صراعا مريرا مفروضا عليها من غيرها من اللغات ،وكان هذا الصراع ابرز وجوه الصراعات التي خاضها العرب ضد الغزاة والطامعين والمستعمرين ، وما تعرضوا له عبر التاريخ من تحديات عسكرية وثقافية ، وفكرية وحضارية ، وقد كتب للغة العربية الانتصار في هذا الصراع دائما لقوة اهلها وحصانتهم(٢) امام تحديات اللغات الاخرى سواءكانت هذه اللغات او اللهجات داخل الامة المعنية او من خارجها ٠كم من لغة هندية او صينية سادت على حساب غيرها من اللغات داخل الرقعة الجغرافية للهنداوالصين وكم من اللغات المحلية ان لغتنا الجميلة في عالم متغير،ربما يكون تناولي لهذا البحث فيه شئ من الغرابة التي لم يألفهاالكثير من المهتمين باللغات٠لان هناك اكثرمن لغة من لغات العالم لم تصمد اندثرت واكتسحتها لغات هجينة اخرى ٠ وقد اعطيت من خلال البحث نبذة عن اللغة العربية قبل الاسلام وكيف كانت لغة جيل من الناس وكيف تكونت حضارة عريقة ،ثم تناولت تأثير اللهجات الكبير في لغات اخرى عرفتها افريقيا كالمصرية القديمة٠ لذا فأن اللغة العربية كانت لها سطوة كبيرة وانتشار واسع في اصقاع الارض منذاقدم عصور الحضارة البشرية، وكان لها تأثير كبير في الشعوب المحتكة بهم ،وبعدها بينت كيف اننا لانجد غرابة اذا ما علمنا ان رسولنا الكريم محمد في مطلع البعثة النبوية قد راسل الملوك والعظماء في فارس والروم ومصر يدعوهم الى الاسلام وكتب اليهم بالعربية ،ثم كان للاسلام بعد خروجه من الجزيرة ممتدا شرقا الى الصين وغربا الى البرتغال في اوربا وغرب المغرب على سواحل المحيط، واهله يحملون القران الكريم يحل معهم اينما حلوا اثركبير في ترسيخ العقيدة الاسلامية واداة التعبير عنها وهي لغة الضاد ٠وللتدليل كان لا بد ان تصطدم اللغة الفاتحة بلغات الشعوب غير العربية الداخلة في حضيرة الاسلام فيحصل الصراع اللغوي.

الحرص على لغتنا العربية

اعجب العرب بلغتهم اعجابا لا حد له وآمنواايمانا عميقا برفعة هذه اللغة وسموها ، لذلك نالت منذ القدم عنايتهم واحترامهم واعجابهم لما لها في نفوسهم من سحر خاص وطعم رائق ولما ينطوي عليه من نقاءواصالة وجمال في التعبير وسلاسة في اللفظ وروعة في الاسلوب ٠لذلك جندوا انفسهم

لدراستها والدفاع عنها بكل ما اوتوا من قوة ، قال الحصري القيرواني :

(ان للعرب كلاما هو ارق من الهواء واعذب من الماء مرق من افواههم مروق السهام من قسيها بكلمات مؤتلفات ، ان فسرت بغيرها عطلت وان بدلت بسواها من الكلام استصعبت، فسهولة الفاظها توهمك انها ممكنة اذا سمعت وصعوبتها تعلمك انها مفقودة اذا طلبت) (٤)٠

والحرص على سلامة اللغة العربية والدفاع عنها والحفاظ عليها لم يتوقف على عصر دون عصر وذلك لان العلم بلغة العرب واجب على كل من فاق من العلم بالقران والسنة والفتيا بسبب حتى لا غنى باحد منهم عنه ٠ (٥)

وكان من حق العرب ان يولوا العربية كل هذا الحرص ، فهي لغة القران الكريم وهي موضع الثناء منه واعجاب الفصحاء واشادة العلماء ، وهي لغة الالفاظ دقيقة الاوزان تمتاز بجمال التعبير وسحر الاداء، اضافة الى انها لغة تاتي في طليعة اللغات المعبرة بين اللغات في العالم الشرقية والغربية، فلا عجب ان تمثل اللغة هذه الخصائص (٦) ٠

تأثير اللغة في اقوام البشر

لو قلنا كيف يكون للغة قوم على وجه الكرة الارضية تأثير في لغات البشر وما نوع التأثير الذي تتركه اللغة في غيرها ٠ وهل التأثر والتأثير بين اللغات الا قضايا نسبية تتحكم في ظروف اللغة المؤثرة في اللغة المتأثرة ، كالموقع ، والاحتكاك ، والسيطرة العسكرية ، والاحتلال ، والغزو ، والثقافة والتجارة ، والسياحة ، ووسائل البحث والدراسة ، وما يمت الى ذلك كله بصلة٠

وتؤدي اللغة المسيطرة الغازية دورا كبيرا في تغيير بعض الظواهر الدقيقة في اللغة المغزوة حتى تصبح هذه التغييرات فيها ملمحا من ملامحها وسنة من سننها في لسان اهلها ،ويحدث مثل هذا التلأثير حين يفرض الغزاة على المغزوين التكلم بلغتهم الغازية ، ويدخلونها في التعليم والتثقيف ، والتربية ، والتأليف ، ومن ثم جعلها اللغة الاولى ، واللغة الاصلية لغة ثانية ٠ وتقوم وسائل التجارة والاعلان والنشر والتثقيف والسياحة بدور كبير وفعال في ادخال مفردات ومصطلحات واستعمالات يومية على اللغة المحلية ، اذ ان كثير من مفردات العلوم والثقافة والاعلانات التجارية وغيرها تكون جديدة او مستحدثة او مولدة ٠(٧)

ان التاثر والتاثير في اللغات سنة طبيعية ، وقانون دائم ، فاللغات تاخذ وتعطي ، ويعمل التقارب والمعايشة في المكان والزمان عملا كبيرا وفاعلا في الاقراض والاستعانة ، ولكي يستطيع الشعبان المتقاربان ان يتواصلا ويتفاهما ، يصيران الى المزج بين لغتيهما ، فتاخذ كل لغة من الاخرى ما يسد حاجتها ، وما يؤهل حامليها والمتكلمين بها للتفاهم والتواصل مع من هم في جوارهم ، وهذه سنة طبيعية مستمرة بين الشعوب المتجاورة ٠و لناخذ مثالا :

فالعربي – اليوم – الذي يعيش في الجهة الشرقية – من العراق –يستطيع التفاهم مع الفارسي – الايراني – والتركماني – والكردي فيمزج بين العربية ومفردات من اللغات التي يتكلم بها ابناء الحدود الشرقية والشمالية الشرقية من – العراق – كما يستطيع الكردي والتركماني والفارسي ان يتفاهم مع العربي ٠ مع ملاحظة الغلبة للغة العربية في التفاهم ، لكونها لغة الدين الاسلامي الحنيف – اولا – ولانها لغة الشعب العراقي عموما ٠وهي اللغة العامة لكل الشعب عربا واكرادا ، لان الجميع على صلة مباشرة بالقران الكريم – يوميا – يتلونه تدينا ، ويؤدوون عباداتهم باياته ٠وهذا كمثالا عن العراق ينطبق على كل الاقطار الاخرى التي دانت بالاسلام ، وعاش العرب فيها الى جانب اهل تلك البلاد ٠

وفي مقالة لماسنيون بعنوان (العربية لغة الاسلام الدينية المقدسة) : ((لا ريب في ان الاسلام قد اتخذ العربية لغته الدينية الرسمية))و (انها لغة الرسالة الشاملة واداة الاسلام في نشر الاسلام بين الامم قاطبة) ٠(٨)

ومن هنا نرى ان الباحثين عموما او اغلبهم قد اتفقوا على ما تركه الدين الذي خرج من الجزيرة ، وانتشر في الارض من اثار واضحة المعالم في لغات البشر ٠

اللغة العربية قبل الاسلام كانت العربية قبل الاسلام ، لغة جيل من الناس ، كبير القاعدة ،متسع الارض ،

يعيش داخل جزيرة العرب ، وخارجها ، فاما الجيل الذي يعيش في داخل الجزيرة فهو العربي الذي امتد في عروق الزمن مدة لا نعلم بداها ، ولكننا نعلم انه موجود فيها قبل التاريخ بالاف السنين ٠فالموجات التي خرجت من جزيرة العرب الى ارض الرافدين ، وارض كنعان ، وامتد تاثيرها الى افريقيا في سكان شمال افريقيا ووسطها كمصر وليبيا والحبشة والمغرب وتونس والجزائر ٠

كانت قد خرجت من ارض اليمن وما جاورها في حدود اربعة الاف سنة قبل الميلاد وسكنت ارض العراق ، وكونت حضارة بابل واشور كانت تتكلم العربية ، كما يدل على ذلك النقوش الكتابية التي اكتشفت وكانت تتميز بكل سمات العربية ٠(٩)

لقد كان تاثير هذه اللهجات كبيرا في لغات اخرى عرفتها افريقيا ، كالمصرية القديمة – الحامية – والنوميدية الليبية القديمة ولهجة اهل قرطاج في تونس ، وامتد هذا الاثير الى ارض المغرب والحبشة، بحيث كونت هذه التاثيرات وجود لغتين هما الحبشية السامية ، والحبشية الحامية ، فالسامية كالنيجيرية والتجرينية ، والجعزية والامهرية ، وغيرها مما يمثل صورة من صور الجزرية الام التي زحفت مع اهلها عبر زمن طويل وبعيد الى هذه الاصقاع ٠وكونوا شعبا متميزا بخصائص وسمات لغويةتختلف عن لغة اهل تلك الاصقاع ، وليس ذلك بغريب اذا ما علمنا ان ثمة من يذهب الى ان صنهاجة : وهي قبيلة من القبائل العربية التي سكنت منذ اقدمالعصور ارض افريقيا وكونت اصلا من اصول سكان افريقيا ، ان هذا الامتداد في تاريخ عريق ومكان واسع من الارض لقبائل العرب الذين يحملون لغة الجزيرة العربية معهم ٠ليدل على ان اللغة العربية قد كانت لها هذه السطوة الكبيرة ، والانتشار الواسع في اصقاع الارض منذ اقدم عصور الحضارة البشرية ٠ انها كانت تسجل حضورا في تلك الاصقاع الى جانب اللغات المحلية والاقليمية ، وربما كان لاهلها هناك تاثير كبير في الشعوب المحتكة بهم (١٠) ٠

اللغة العربية في زمن البعثة النبوية

وعلينا ان نفهم اولا ان هذا ليس بغريب اذا ما علمنا ان رسول الله في مطلع البعثة النبوية قد راسل الملوك والعظماء في فارس والروم ومصر ، يدعوهم الى الاسلام وكان قد كتب اليهم بالعربية (١١)٠وايضا في هذا الامر احتمالان :

الاول : ان هؤلاء الملوك كانوا يعرفون العربية ، ففهموا مضامينها وادركوا دعوة الرسول لهم ، او تكون قد ترجمت لهم وهذا امر غير مستبعد ،وهوايضا يدل على كون اللغة معروفة عندهم ، وفيهم من يترجمها ويعنى بها ٠

الثاني : ان هذه الرسائل كانت بمثابة ارهاص لان تكون العربية لغة العالم ، وان الذين سيتكلمون بها في المستقبل ينضمون تحت لواء امة واحدة تدين بدين واحد ونتكلم بلسان واحد ٠ وسيكون لها المكانة الاولى بين لغات الارض ، ومن طريق هذه المكانة سيكون لها الاثر الكبير في لغات البشر ، لانها ستحتك بكل اللغات العربية منها ، وستترك فيها اثارا من الالفاظ والاستعمالات ٠ وقد حدث هذا فعلا ، فيما فعلته في اللغات الهندية والافغانية والتركية ، والفارسية ، والكردية ،والبربرية ، والاسبانية ، بل في اللاتينيات عموما (١٢) ٠

قالوا في لغتنا العربية

– عبد القادر الريحاوي: يقول في كلام نشره في اللسان العربي (١٣) : ((بعد ان فقدت اللغة اليونانية سيادتها اصبحت اللغة العربية لغة رسمية للعلم والثقافة)) ٠ ويشير في مقالة الى ان شعوب الشمال الافريقي قد حال تمسكها بالدين دون القضاء على اللغة العربية ، فيها برغم جهد المستعمر الجبارة ٠والبيئات ا لعربية الخالصة في سوريا ولبنان تعنى بهذه اللغة افضل العناية مع انها في الاعم الاغلب ابعد ما تكون عن الوازع الديني والوعي الاسلامي ٠

– والريحاوي عندما يقول ذلك يريد ان يثبت ان اللغة العربية قد اثرت في شعوب هذه الاصقاع ، من غير ان يكون للدين دخل في نشرها ٠ وترسيخ قواعدها في شعوب هذه الاقاليم والمدن ، وهو راي قد لا يتفق مع اراء الذين يرون ان العربية

لغة الدين وانها من الدين ٠ وانها ملازمة بسيرورة القران في الارض ، تحل معه اينما حل، وتستقر اينما استقر في شعوب الارض ، فالاسلام هو الذي حملها للبشر ، ليكون لها الموقع الاول بين لغات العالم في تاريخ الحضارة الاسلامية (١٤) ٠

- عبد السلام هارون:يقول الاستاذ عبد السلام هارون : ((ان لغة القران محت القبطية في مصر ، والبونيقية في الشمال الافريقي ، والنبطية في العراق ، واللاتينية في الشام)) (١٥)٠
- ابراهيم نياس: يقول ابراهيم نياس في مدينة كاولاخ بالسنغال : ((ان المسلمين بالسنغال تواقون الى العربية ، برغم تغلغل الاستعماروثقافته ولغته زهاء مئة وخمسين عاما ، وبرغم انتشار اللغة الولوفية الوطنية التي يكتبها كثيرون بالاحرف العربية ، التي اصبحت بفضل القران اداة تثقيف وتربية ٠٠٠))(١٦)٠

الصراع اللغوي

لقد كان للاسلام بعد خروجه من الجزيرة ، ممتدا شرقا الى حدود الصين وغربا الى البرتغال في اوربا ، وغرب المغرب على سواحل المحيط ، واهله يحملون القران يحل معهم اينما حلوا ، اثر كبير في ترسيخ العقيدة الاسلامية واداة التعبير عنها ، وهي لغة الضاد ، وكان لا بد من ان تصطدم هذه اللغة الفاتحة بلغات الشعوب غير العربية الداخلة في حضيرة الاسلام ٠فيحصل الصراع اللغوي بينها وبين اللغات المحلية ٠وهو صراع ينأى عن منطق القوة والتسلط وينسجم مع القوانين اللغوية المعروفة التي يحددها الكثير من الباحثين ، في حيوية اللغة وفاعليتها، وسهولتها ونشاطات اهلها ودماثة اخلاقهم ، وقوة ايمانهم ، وكثرة عدد المتكلمين باللغة الى غير ذلك من العوامل المساعدة على انتشار اللغة ، وتاثيرها في المحتكين باهلها(١٧)٠

استطاعت اللغة العربية بما امتلكت من قوة التاثير ان تدخل في صراعات لغوية وان تؤثر تاثيرا كبيرا في نفوس الشعوب ، فتفتح ابوابها لها طوعا ورغبة بعد ان كانت لغاتها رومانية او يونانية او فارسية او تركية او اية لغة وطنية ومحلية اخرى لتلك البيئات ، ولم يمضي الا جيل او جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب الامة الواحدة ٠هجرت اليها السنتها القومية ، دون ان يجبرها احد على ذلك كما لم يكرهها مكره ٠ على ان تتخلى عن عقائدها ، واديانها ، لتعتنق الاسلام ، وتمارس الكلام بلغته ٠(١٧)

اللغة العربية لغة الثقافة والعلوم

حينما استقرت العربية في البلدان ، وبدأت تؤدي وظيفتها في من جاورها من الناس ، استطاعت ان تشق طريقها من اللسان فتثري اللغات الاخرى بمفرداتها ، ودلالات الفاظها ، واستعمالاتها النختلفة ، وتصبح في بعض المواطن لغة الكتاب والثقافة والادب والعلوم ، كما هي الحال في بلدان المشرق الاسلامي ، فنظم الشعراء بها ٠ والف العلماء كتبهم ٠وتواصل الشعب بها ، فضلا عن تادية الشعائر والمناسك بها ٠

ولو اردنا ان نقوم باستفتاء عن اللغة العربية ، وارتباطها بالاسلام ، وقضية انتشارها في بلدان العالم ، وتاثيرها في الناس ، لوجدنا النتائج تخرج بمذاهب منها :

اولا :ان الاسلام والقران ، لهما تاثير كبير وواضح في انتشار العربية ورسوخ قدمها في الارض٠

ثانيا : ان العربية بقوة فاعليتها ، ويسرها وسهولتها ، استطاعت ان تمتلك اعجاب من عرفها واطلع عليها ، فاتخذها وسيلة تعبير له ، ولم يكن للقران يد في نشرها ٠

ثالثا : ان شخصية المسلم ، وسلوكه القويم ، وحسن اخلاقه ، عوامل جذب لكثير من شعوب الارض ، فاعتنقوا الاسلام وتعلموا اللغة ، وتواصلوا بها معه ٠(١٨)

اللغة العربية في منظور ابن خلدون

يؤكد ابن خلدون في الفصل الثاني والاربعين من – مقدمته – ان الاعاجم انما اجادوا العربية لسهولتها ، ونشاتهم بين الناطقين بها ، والرغبة في الانتماء الى اهلها فيقول :((ان عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه والفارسي والزمخشري وامثالهم من فرسان الكلام كانوا اعجاما مع حصول هذه الملكة لهم ، فاعلم ان اولئك القوم

الذين تسمع عنهم ، انما كانوا اعجاما في نسبهم فقط ، واما المربي والمنشا فكان بين اهل هذه الملكة من العرب ،ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شئ ورائها ،وكأنهم في نشاتهم من العرب الذين نشؤوا في اجيالهم حتى ادركوا كنه اللغة ، وصاروا من اهلها ، فهم وان كانوا عجما في النسب فليسوا باعجام في اللغة والكلام ،لانهم ادركوا الملكة في عنفوانها واللغة في شبابها)) (١٩) ٠

اللغة العربية لغة القران الكريم

ان العربية لغة العقيدة الاسلامية ،اللغة العربية لغة القرآن الكريم ،لغة الله التي اختارها لكلامه الجليل ،يخاطب بها اهل الارض،فهي لغة تتناسب وقدسية العقيدة التي تستوعبها وتبلغها واللغة من الامة اساس وحدتها، ومرآة حضارتها ، فكيف اذا كانت لغة قرأها الذي تبوأ الذروة فكان مظهر اعجاز لغتها القومية ومستودع عقيدتها الدينية ،نعم لقد نزل القرآن هذا الدستور الالهي الخالد بلغة العرب ، واستطاعت اللغة العربية بماامتلكت من قوة التأثيران تدخل في صراعات لغوية ،وان تؤثر تأثيرا كبيرافي نفوس الشعوب ،فتفتح ابوابها لها طوعا ورغبة بعد ان كانت لغاتها رومانية او يونانية او فارسية او تركية او اية لغة وطنية ومحلية اخرى لتلك البيئات، ولم يمض الاجيل اوجيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب امةواحدة،هجرت اليها السنتها القومية، دون ان يجبرها على ذلك احد، كما لم يكرهها مكره، على ان تتخلى عن عقائدها،واديانها ،لتعتنق الاسلام،وتمارس الكلام بلغته (٢٠)٠

اهمية الحرف العربي في لغات الشعوب

لقدكتبت كثير من الشعوب لغاتها المحلية بالحرف العربي ، كالفارسية ، والتركية والافغانية والكردية والمغولية والبربرية والسودانية والملايو الساحلية وغيرها (٢١) ٠ فمن ذلك قول حافظ شيرازاي :

الا يا ايها ا لساقي ادر
كاسا و ناولها
كه عشق آسن نبوداول
ولي أفتاده مشكلها
اذا لم تلق من تهوى
دع الدنيا و أهملها

فالشاعر يكتب بالحرف العربي ،وهوفارسي ،ولم يكتف بالحرف بل مزج بين المفردات الفارسية والعربية ،مما يدل على التأثير الواضح للعربية في الفارسية ٠

ويقدر الباحثون في اللغات التي تستخدم الحرف العربي في كتابة لغاتها بمايزيدعلى ٣٥٠مليون ،فضلا عن ان المسلمين في عموم الارض يقرؤون القرآن ويكتبون آياته ويتدارسونه بالعربية ومعلوم ان لاصلاة بغيراللفظ العربي للقرآن٠ (٢٢)واذاكان المسلمون يمارسون الكلام بلغةالقرآن،ويكتبون علومهم وادابهم بهافذلك انهم يؤكدون ثقافتهم العربية،وتدينهم بالاسلام والتزامهم عقيدة التوحيد، ولقدحدث في زمن النبي ان تنقص رجل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي لكونهم من الاعاجم فبلغ ذلك رسول الله فقام في الناس خطيبا ،فقال: (ياايهاالناس ان الرب واحد وان الدين واحد ،وليست العربية باحدكم من اب ولا ام، وانما هي اللسان ،فمن تكلم بالعربية فهو عربي) (٢٣)٠

ومن هنا نسمع ابن الشمال الافريقي يطلق على نفسه :اسم عربي ويعني بذلك انه مسلم ٠

العولمة اللغوية

لو قلنا ما العولمة اللغوية ؟وهل هناك لغات تفككت او ستتفكك تحت ضغط هذه العولمة؟وهل هناك لغات انتقلت من المحليةالى الاقليمية او العالمية؟وماذا بعد العولمة.

ان عولمة اللغة :هي ليست عنوانا لكتاب لا نعرف عنوانه على حد تعبير احد الفضلاء (٢٤)ولا هي عنوان لا يحمل مضمونه وخفاياه انها الجانب المهم من(عولمة الثقافة)التي يحتدم اليوم فيها الصراع وهذه العولمة تدعو الى بناء ثقافة كونية ذات عناصر عالمية مشتركة تتضمن نسقا معينا من القيم والمعايير التي فرضها على شعوب العالم مما قد يؤثر بالسلب على الخصوصية الثقافية لهذه الشعوب وليس بخاف ان من ابرز مظاهر هذه الخصوصية الثقافية والحضارة والدينية لأي امة لغته(٢٥).

أن (عولمة الثقافة) تدعو الى ايجاد ثقافة واحدة في لغة واحدة تسيطر وتسود وتهيمن على الثقافات

الاخرى وذلك عن طريق نشر مضامينها واساليب تفكيرها واساليب التعبير والذوق وانماط السلوك والقيم والتقاليد والاعراف والنظر الى الحياة والوجود في محاولة منها للحلول محل الثقافات الاخرى ومن ثم الحلول محل اللغات الاممية جميعها(٢٦).

ان هناك في ظل العولمة ثقافة عالمية اخذة في التشكيل والنضج بل الاكتمال تتجاوز كافة الحدود الثقافية القومية والمحلية الاخرى قد يقال فيها انها ثقافية سطحية او استهلاكية او مادية او غير ذلك من النعوت. التي لا يمكنها نفي الحقيقة القائمة وهي ان هذه الثقافة (غزو فكري) ينتشر بوسائل كثيرة وفي لغة واحدة بغية السيادة على حساب ثقافات اممية اخرى انها تذهب الى الجذور المعرفية لتراث الامة المعينة ثقافياً وفكرياً وحضارياً ولغوياً وليس بجديد أذا قلنا : أن عولمة الثقافة وسيادة اللغة الانجليزية – مثلا– على حساب اللغة العربية– كما يريد اكثر من طرف داخلي او خارجي . ان تسود – أشد خطورة وضرراً على العرب من الاستعمار الذي ذاقوا مرارته؛ لان عولمة لغة اجنبية على حساب اللغة العربية الام من اخطر العولمات فتكا واستلابا للثقافة العربية والحضارة العربية، والمستقبل العربي؛ لان هذه العولمة ستؤدي الى قطع صلة ابناء الامة بكل شيء يمتلكونه من الارث الحضاري والثقافي.

ان هناك أكثر من لغة من لغات العالم لم تصمد امام تحديات اللغات الاخرى، سواء اكانت هذه اللغات، او اللهجات داخل الامة المعينة او خارجها ، فكم من اللغات الهندية ، او الصينية سادت على حساب غيرها من اللغات داخل الرقعة الجغرافية للهند ، او الصين وكم من اللغات المحلية قد اندثرت بعد ان كانت لغات كاملة الحقوق ، فاكتسحتها لغات هجينة اخرى(٢٧).

ان جهودا كبيرة تبذل اليوم من اجل نشر لغة معينة عل حساب لغات اخرى كما الحال في اللغة الانكليزية التي يراد لها ان تكون لغة عالمية بلا منازع واداة الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والاعلامية الامريكية خصوصا الاوربية الناطقة بالإنكليزية عموما على ان يتضاعف انتشار هذه اللغة على اكبر مساحة من العالم ويعمل (الانترنت) على توسيع نطاق هذه اللغة من خلال استخدام كلمات وعبارات انكليزية كبيرة دون غيرها تفرض وجودها على كل اللغات الاخرى معبرة عن ثقافة وقيم استهلاكية قد لا تتناسب مع قيم الامم الغريقة كالعرب والصينين والكوريين و الالمان والفرنسيين والروس والإيطاليين وغيرهم .

ما بعد العولمة :

لم يتوقف الصراع الاممي اليوم عند حدود العولمة اللغوية او الثقافية او الاقتصادية او الاعلامية او السياسية او غير ذلك من الاحداث والاشياء والعقائد والابتكارات والمكتشفات وغيرها من العمليات (المعولمة) والجارية والمستمرة باستمرار الحياة بل تتجاوز الى ما هو انكى على الشعوب والامم حيث برزت الدعوة الى (نهاية التاريخ والانسان الاخر) وهو اخر بيان على الصعيد الفكري والايديولوجي في الغرب بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وزوال المعسكر الاشتراكي وتمكن امريكا وحلفائها من بعض ارض العرب وبعد ان وجدت امريكا نفسه اعلى الساحة الاقتصادية والتقنية والعسكرية والسياسة والاعلامية من غير منازع(٢٨).

وفي هذه الدعوات والاهداف يجد الجميع نفسه امام اغتصاب جديد لمفهوم التاريخ وحركه ونهايته وامام حركة تريد الاستحواذ على كلية التاريخ فتخضع كل شيء بما فيه الانسان واللغة والثقافة والحضارة بل المعتقد والدين لشخصيتها المهورة بالطابع الغربي الذي يعلم على وأد الزمن الثقافي والحضاري للأمم الاخرى هذه الامم لاتزال اسيرة التاريخ غير قادرة على التحرر منه انها الامم (الميؤوس منها) على رأي هؤلاء والحياة لامة التي انجزت رحلة التاريخ كلها وفكت قيودها من أي ارتباط بالماضي وتجاوزت صراع : الواقع والمفهوم وحققت جوهر الاكتفاء الذاتي وهي بذلك جديرة بأن تفرض نفسها اولا على العالم وعلى الاخرين الاعتراف بالسيادة والتفوق والاكتمال(٢٩).

ماذا اعددنا لمواجهة العولمة اللغوية؟

قبل الاجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من التأكيد على الحقائق التالية:

اولاً: ان العولمة والعولمة اللغوية والثقافية

واقع معيش وقدر محتوم فالقضية في العولمة ليست قضية اختيار فكري او ثقافي او سياسي او اقتصادي في ان نقبلها او نرفضها بقدر ما هي قضية سؤال عن قضية التعامل معها واستيعابها وتحصين لغتنا وثقافتنا لمواجهتها.

ثانياً: ان العولمة والعولمة اللغوية والثقافية على وجه الخصوص مقبولة ان لم تقم اضطهاداً فكريا للآخرين وان تتغذى من تنوع الثقافات والقيم وتعدد الطموحات المشروعة واحترام الثقافات والهويات الاممية المختلفة وقبول الاخر وهدم ال(انا) السد المطلق والاعتراف بالتعدد الثقافي واللغوي والحضاري والاقرار بأن الاختلاف بين الشعوب ثقافات ولغات امر واقع.ان كل هذا كفيل بأن يخلق بين امم الارض وشعوبها كبيرها وصغيرها غنيها وفقيرها افقاً تنويرياً قادرا على صوغ خطاب حضاري قائم على العدل والمساواة واحترام الاخر.

ثالثاً: ان العولمة اللغوية والثقافية يجب ان لا تكون نقيضاً بتوجهات الحضارة العربية الاسلامية لان في صلب الحضارة هذه الحضارة تراثاً ثقافياً ضخماً وقادراً على تطوير الجانب المضي من حركة العولمة نفسها وفي أي اتجاه تريد ان تسير(٣٠) .

رابعاً: ان لب العولمة وهدفها الاساسي قائم على بضع كلمات: ازاحة كل شيء غير قادر على المنافسة!

فماذا اعددنا كي نصمد في وجه هذا التيار قبل ان يجرفنا، ويزيحنا، ويمحق كل شيء لنا بما فيه لغتنا ،وهويتنا، وتاريخنا، وحضارتنا؟

وها هي العولمة تطرح اعباء وتحديات امام اللغة العربية كما تطرحها على غيرها من اللغات ،تحديات هوية وحداثة وتنمية وعولمة بما يستوجب على كل امة من الامم تأهيل نفسها ضد هذا التحدي بغية بناء مستقبلها العلمي والمعرفي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي والتنموي.

ان تحديات العولمة التي تواجهها اللغة العربية اليوم تضع كل عربي اصيل ، بل كل ناطق بهذه اللغة امام سؤال يبدو ظاهره ثقافياً وهوة سؤال اللغة العربية التي هي قوام الامة، وقوام ابنيتها التاريخية والحضارية والقومية ليست اداة تخاطب اجتماعي فحسب ولا مستودك الافكار والرموز والقيم الجمالية فحسب بل انها-فوق ذلك-المستقبل ومن لا لغة له او من اضاعها في لجة الاستلاب واودعها في المتحف يصنع الاخرون مستقبله ولذلك فالتفكير في اللغة العربية لا ينصرف حصرا الى بيان اتصالها ببناء هوية الامة وشخصيتها الثقافية والحضارية ...وانما هو ينصرف الى بيان صلتها ببناء مشروع نهضوي في المستقبل(٣١).

((ان المستقبل العربي مرتبط بإرادة تغيير، و هذا التغيير يبدأ من طريقة النظر في الامور))(٣٢)

٠((ان حاضر اللغة العربية يفرض قراءة وضع هذه اللغة وسبره وتقييمه من اجل الانطلاق الى الامام٠))(٣٣)

فماذا اعددنا لمواجهة العولمة اللغوية الثقافية ونحن نجد لغتنا تواجه عدوانا خارجياً وداخلياً على اقلام بعض الناطقين بها ممن ينادون بأفكار ومفاهيم ودعوات اقل ما توصف به انها مضللة ومشبوهة تحاول ان تئد اللغة العربية بجهالة وجاهلية مقيتة من هذه الدعاوى البائسة(٣٤):

- ان العربية لا تقنع مثقفاً في العصر الحاضر ولا تخدم امة ولا ترقيها لأنها عاجزة عن نقل (مائة) من العلوم التي تصوغ المستقبل.وفي احسن الاحوال يكون موقعها وسطاً بين موقعين فلا هي قادرة على النهوض بكل شيء ولا هي خاملة عاجزة.
- ان عدم رقي الامة العربية يعزى الى لغتها فهي «لغة ميتة من ناحية العلوم وادبها يعد ادباً ميتاً لأنه ليس أدب الشعب عامة الشعب وملايينه اذ هو يكتب بلغة لا تفهمها الملايين(٣٥).
- ان العربية لغة بدائية لا تقبل الجديد ولا التطور ولا التطور ولا يمكن لها ان تمضي مع الايقاع الحضاري او تتكيف مع الحركة العلمية . فغزارة الانتاج العلمي الغربي جعل مواكبته بالتقريب او بالترجمة مهمة شبه مستحيلة.
- لكي تمتد أبعاد هذه (الثرثرة) وتستطيل راح بعظهم يصطنع بين اللغة وقواعدها وانظمتها المحكمة صعوبة لا يقوى عليها ابناء الامة ولذلك دعا الى اصلاح هذه القواعد أو تغييرها بل إلغائها.

وذهب أخرون الى اصطناع فروق

ساذجة بين علمية الفكر العربي وشرعانيته فالعربية عند هؤلاء لغة ادب ودين لا تصلح ان تكون لغة علم وابتكار وتقنية. وفات هؤلاء ان البيان هو الطريق الامثل للبرهان العلمي.

أن مثل هذه الدعوات الباطلة وغيرها كثير تضع امامنا جملة من المقدمات.

أما المقدمات فتؤكد أن اصحاب هذه الدعوات الباطلة قد صموا وعموا عن جملة من الحقائق البينة المتمثلة بالاتي:

اولاً: أن اللغة كالدين خاصية اساسية في التعريف بالحضارة.

ثانياً: أن الحضارة العربية الاسلامية «قامت في ركيزة اساسية من ركائزها على اللغة بحكم مركزية النص القرآني لها(٣٦).

ثالثاً: أن من يمتلك لغة قادر على أن يحمي لغته.

السبيل لتمكين لغتنا العربية من الصمودازاءتحديات العولمة

من هنا يمكن القول ان مفتاح الانتصار للغةالعربية في معركة العولمة ليس في تكرار القول فيماتمتلكه العربية من وسائل النموالتطور ،واستيعاب عمليات الترجمة والتعريب لكونها تشتمل على اكثر من ٤٠٠ ألف مادة لغوسية كل منها يتفرع الى كلمات في حين لاتحتوي الانجليزية الا على ١٠٠ ألف كلمة والفرنسية على ٢٥ ألف كلمة فقط٠

وهناك جملة من الطروحات والعمليات التي من خلالها يمكننا تمكين لغتنا العربية من الصمود امام تحديات العولمة الماحقة، اذ ان تحديات العولمة التي تواجهها اللغة العربية اليوم تضع كل عربي اصيل بل كل ناطق بها الى بيان صلته ببناءالمشروع النهضوي في المستقبل ، وان المستقبل العربي مرتبط بأداة التغيير والتغيير يبدأ من طريق النظر في الامور و يستلزم لضمان مستقبل مشرق للغةالعربية ومكانة فاعلة في اسواق اللغوي المعلوماتية المعولمة٠ من هذه الطروحات :

اولا:وجوب التعامل مع اللغة العربية من كو ننا امة كان للغتها دور اساسي في رسالتها الدينية و الثقافية و العلمية و الا د بية الى الامم كافة، ولم يسجل على هذه اللغةاي عجز وقصور في حمل هذه الرسالة٠

ثانيا:لابد لنامن ربط اللغالعربية بقضيةالانتماء والهوية لتستطيع مواجهةكل التحديات، فلاخريطة سياية للعرب اليوم من غير نجاحهم في صياغة خطابهم العلمي والثقافي والسياسي باللغة العربية، وبشترط ان يكن العلم والثقافةفي صميم التركيب العقلي للعرب على اختلاف مشاربهم ومستوياتهم المعرفية والاجتماعية٠

ثالثا:ان من الانصاف الا نتحدث في المشكل اللغوي بمعزل عن طبيعة المجتمع العربي الثقافي والعلمي والاقتصادي الراهن(٣٧)٠

رابعا:ان تطوروسائل الاعلام سيؤدي الى نظام اشبه بشبكة الطرقات السريعة المرتبطة بعضهابعض والممتدة عالميابلاحواجز اوحدود ،لذاعلينا ان نمتلك التخطيط العلمي لنشاط ثقافي اعلامي مكثف ومتواصل في مقابل سيل الاعلام الجارف نحونا٠

خامسا:الحد من الاعتقاد الخاطئ الذي ينص على ان استعمال اللغة الانجليزية هومفتاح الحياة على العرب(٣٩)٠

سادسا:تكثيف حركة الدراسات والبحوث والانشطةالعلمية والادبية والفنية بالعربية (٤٠)٠ووضع الحوافزالمشجعة على ذلك٠

سابعا: العمل على نشر اللغة العربية بين ابنائها وفي اوساط الاقليات والجاليات الناطقة بغيرالعربية ونشرهاخارجيالاسيما في البلدان الاسلامية٠

ثامنا:الاستفادة من تجارب الشعوب غيرالعربية في مواقفهامن لغاتها٠مثلا اعتمدت اليابان المعاصرة لغتها القوميةفي التعليم منذالمراحل الاولى له الى المراحل العليا،ولم يكن اليابانيون بحاجة الى اللغات الاجنبية٠وادركوا بانه لايمكن لامة ان تبدع علما وتسجل تفوقا حضاريا الا بلغتها الام،وان العالم لا يستمع لامة لاتتحدث بلغتها(٤١)٠

لقدوقفت اليابان والصين وكوريا وغيرها من البلدان من الحضارة الغربية موقف التلميذووقفنا منها موقف الزبون ،فهم استوردوا المعارف بوجه خاص،ونحن استوردنا الاشياء

بوجه خاص(٤٢)٠

الخاتمة

لن اطوي صفحات هذا البحث حتى اجمل بعض الحقائق التي خرجت بها من خلال دراسة هذا الموضوع والتي تتلخص في الخاتمة التالية :التأكيد على ان اللغة -اية لغة -- تمثل روح الامة وشخصيتها وثقافتها ، وفكرها ، وعقائدها ، وتوحد شخصية كل فرد من افرادها من غير انفصام٠

ومن غير ذلك لا تصمد امة في وجه تيارات العولمة في عالم يمور علما ، وثقافة ، واقتصادا ، وتقنية ، وحضارة في عولمة ماحقة ومستمرة٠

الهوامش

١-سورة مريم: الاية،٩٧ ٠

٢-اللغة العربية وتحديات العصر، مجلة جامعة الكوفة، كلية التربية الاساسية، مجلد١ ،١٤٣٣هـ، مؤسسة دار الصادق الثقافية، ط١،ص٥٦ ٠

٣-الحرص على لغتنا، نفس المصدر،ص٣٤٨ ٠

٤-حركة التصحيح اللغوي في العصرالحديث، محمد ضاري حمادي، دارالحرية، نشر دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م، ص٣٤٨ ٠

٥الخصائص، ابنجني، تحقيق محمد علي، النجار، ط٢د٠ت،دارالهدى، بيروت، ص١٨ ٠

٦ -الدراسات اللغوية عندالعرب،محمد حسين ال ياسين،ط١٤٠٠هـ،١٩٨٠ دار مكتبة الحياة، بيروت،ص٤٨

٧-لغةالضاد، مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، مطبعة المجمع
العلمي، بغداد، ص٥٥

٨-صحيفةالجنوب، ١٩٣٠م، ص٣

٩-الخالدي، الاصول الفكرية، ج١ ،ص٣٢٥

١٠-ابن حزم، (ت٤٥٦هـ)، الاحكام في اصول الاحكام، ج١،ص٣٠
١١-الاصول الفكرية، ج١ص٣٣٩
١٢-جمهرة رسائل العرب، احمد زكي صفوت ،ص٣٥
١٣-مجلةاللسان العربي، عددشوال، ١٣٨٨هـ،ص٢٢٧
١٤-نفس المصدرالسابق
١٥-النظم الاسلامية،فيصل السامر، دار النشر للملايين الطبعة بيروت،١٩٦١م، ص١٦٠
١٦-ابحاث ونصوص في فقه اللغة العربية،رشيدالعبيدي، ص٢٢٩
١٧-نفس المصدرالسابق
١٨-مجلة الضاد،منشورات المجمع العلمي،ص٢٦٢
١٩- اقتضاءالصراط المستقيم،ص١٦٢
٢٠-١-نسانية الثقافة الاسلامية،عدنان زرزور، ص٨١
٢١-اللسان العربي،ج٦،ص٢٢٧
٢٢-نحووعي لغوي ،مازن المبارك، ص١٢٥
٢٣-ابن تيمية، اقتضاءالصراط،ص٨٠
٢٤-الخليفة، يوسف ابوبكر، مشكلات التعليم باللغةالعربية، السودان
٢٥-فوكوياما، فرنسيس، نهاية التاريخ، والانسان الاخر، ترجمة:فؤادشاهين، تقديم مطاع صفدي، مركزالانماء، بيروت،٩٩
٢٦-بدوي، عاطف، العولمة وتوجهات الهوية، مجلة القراءة والمعرفية، ص٧٠
٢٧-الخليفة يوسف ابوبكر، مشكلات التعليم باللغةالعربية، السودان، ٨٦
٢٨-نفس المصدر
٢٩-غنايم، محمد، اللغة العربية وبناء المستقبل العربي، بيروت، ٢٠٠٨م، ٣٤٧٤ - ٣٠ - الشاذلي القليبي، امة تواجه عصرا جديدا، دارالبستان، بيروت٣١
٣١ –احمد بن نعمان، اللغةالعربية: اسئلة التطور الذاتي والمستقبل، عدد٤٦، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥م
٣٢-الجابري، محمدعابد، المشروع النهضوي العربي، بيروت، ٢٠٠٥م
٣٣-غنايم،محمد،اللغة العربية وبناء المستقبل، بيروت، ٢٠٠٨م
٣٤ نهر، هادي، التعريب والترجمةضرورة قومية، مجلةالاداب، المستنصرية، ١٣٤بغداد
٣٥، الخطيب،حسام،اللغةالعربية اضاءات عصرية، الهيئة المصرية للكتاب، م
٣٦- طرابيشي، جورج، وحدة العقل العربي الاسلامي، دار الساقي، بيروت٢٠٠
٣٧- المسعودي، مصطفى، العرب وحوار الحضارات،
٣٨- الشراع، يعقوب احمد، مناهج العربية، العدد٤، مصر
٣٩- ا-لعناني، وليد، وبرهومة، اللغة العربية واسئلة العصر،دار الشروق،عما
٤٠- القفاري، عبدالله، قراءات في زمن التكوين، المؤسسة العربية للدراسات الاردن، ١٩٩٨
٤١- الحداد، هيثم، العولمةاللغوية، المغرب،٢٠٠٦
٤٢- مالك بن نبي، حديث البناء الجديد، ترجمة:عمر مستعاوي،